أَثَرُ الإِعْرَابِ فِي تَحْدِيدِ دِلاَلَةِ بَعْضِ أَلْفَاظِ القُرْآنِ

د. يونس حمش خلف محمد
قسم اللغة العربية
معهد إعداد المعلمات الموصل

الاستلام	القبول
٠٨ / ٠٦ / ٢٠١٠	٠٦ / ١٠ / ٢٠١٠

ABSTRACT

Parsing is a very important characteristic of arabic language. it is also one of the main signs of its eloquence and not conforming to it is considered a defect which deforms such eloquence. for making the words' endings vowelless violate the structure of such eloquence and change it to ordinary discourse. arabic, however never make words' endings vowelless only when stopping. it never combines two vowelless endings, never starts with vowelless sound and never stops at a vowel .

For words' endings in arabic are adjusted with either the relevant diacritic or with a vowelless mark according to the position of these words in the sentence. I have made such parsing marks as diacritical marks and their equivalent letters like 'alif', 'waw', and 'yaa' indicative of such adjustment .

What encouraged me to write this paper entitled "the influence of parsing in identifying meaning" was the discussion that took place among the teachers of arabic at the institute concerning the nunnation of the word 'missr' in the holy qur'an-is it 'missr', the country itself, or 'missr', the territory? after examining the material in its context, I have noticed the way the meanings of these expressions change according to change of the movement of their parsing. this appears very clearly in the books of the qur'anic readings .for there were many researches about readings and their influence in identifying the meanings of the words' structures. this is a wide field which is as high as the academic theses themselves. but i have preferred to focus in this paper on specific expressions around which the paper has been centered. the paper sheds a light on parsing and its importance in changing the meanings of words.

The paper is divided into five sections preceded by an introduction which deals with the linguistic denotation of parsing. while in the first chapter i have examined the function of the diacritic marks in the language. the second section focuses on the word 'missr' and the third on 'hamalatalhatab'. the fourth section, on the other hand, approaches the word 'ra'ina'. finally, the last section treats the word 'baa'adabeinadafa'taih.'

I have in each section started establishing the origin of the word and relating it to its linguistic root from which it was derived. then a reference to the qur'anic use of such word has been made along with its reported readings as well. surely this gives a good impression of the paper, for it becomes clear that parsing has an influence on meaning representation implied in words themselves.

If I am successful thanks to him, if I am not only me is blamed. I have tried to do my best only for the sake of god, himself is sufficient unto us.

المقدمة

يعد الإعراب من أهم مميزات اللغة العربية، وليست اللغة العربية بدعا في هذا المجال؛ إذ أن الإعراب ظاهرة عربية قديمة (جزرية)؛ إذ تشاركها فيه شقيقاتها اللغات العربية القديمة (الجزرية) مثل الأكدية والعبرانية والحبشية . وقد احتفظت به اللغة العربية في حين فقدته أخواتها، ولم يبق منه فيهن إلا آثار قليلة تدل على قدمه . ولكل لغة من هذه اللغات أنظمتها الصوتية وقواعدها النحوية والصرفية.

والإعراب في اللغة العربية أصيل، وهو من أبرز سمات الفصاحة فيها . وعدم الالتزام به يعد عيبا يخرج الكلام من سياقه الفصيح؛ إذ أن تسكين أواخر الكلمات يخل بنظام الفصاحة ويحوله إلى كلام عادي . فاللغة العربية لا تسكن أواخر الكلمات إلا عند الوقوف عليها، فهي لا تجمع بين ساكنين، ولا تبتدىء بساكن ولا تقف على متحرك .

فالكلمات فيها مضبوطة أواخرها بما تستحقه من حركة أو سكون، بحسب موقعها من الجملة . وجعلت العلامات الإعرابية دليلا على ذلك وهي تشمل الحركات (الفتحة والضمة والكسرة)، ونظائرها من الحروف التي هي (الألف والواو والياء) التي هي مجانسة لها .

وزعم قوم أن العرب العاربة لم تعرف نحوا ولا إعرابا، ولا رفعا ولا نصبا ولا همزا . وقالوا: والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أتهمز إسرائيل؟ فقال : إني إذن لرجل سوء. وقالوا: إنما قال ذلك لأنه لا يعرف من الهمز إلا الضغط والعصر . وقيل لآخر : أتجر فلسطين؟ فقال: إنني إذن لقوي، وسمع بعض فصحاء العرب ينشد:

نَحْنُ بَنِي عَلْقَمَةَ الأَخيَارَا

فقيل له: لم نصبت بني؟ فقال : ما نصبته، وذلك أنه لم يعرف من النصب إلا إسناد الشيء، وعدم معرفة هؤلاء بهذه المصطلحات، لا ينفي عدم وجود الإعراب في الكلام، بل لعله دليل على كون هذه اللغة الكريمة تتمتع به منذ زمن سحيق.

ومما حفزني على كتابة هذا البحث الموسوم : (أثر الإعراب في تحديد دلالة بعض ألفاظ القرآن)، المناقشة التي دارت بين مدرسي اللغة العربية في المعهد، عن سبب تنوين كلمة مصر في القرآن الكريم؛ إذ كانت تدور حول أهي مصر بعينها أم يراد بها مصر م ن الأمصار؟ فتتبعت المادة في مظانها ولاحظت كيفية تغيير معاني الألفاظ، تبعا لتغير حركة إعرابها، وهذا ما يظهر جليا في كتب القراءات القرآنية؛ إذ أن هناك أبحاثا حول القراءات وأثرها في تحديد معاني أبنية المفردات، وهذا مجال واسع يرقى إلى ألفاظ محددة تكون مدار البحث، يسلط الضوء فيها على مسألة الإعراب وأهميته في تغيير معاني الكلمات.

وانتظمت المادة التي تجمعت في ثمانية مباحث، يسبقها تمهيد : دار حول الدلالة اللغوية للإعراب، أما المبحث الأول فبحثت فيه وظيفة الحركات في اللغة، وكان المبحث الثاني من نصيب كلمة باعد، وشمل المبحث الثالث: حمالة الحطب، وتناول المبحث الرابع: كلمة الحمد، وجاء المبحث الخامس ليضم كلمة راعنا بين دفتيه ، وخصص المبحث السادس: لكلمة المجيد، وأما المبحث الثامن: فإنه لكلمة ويل؛ إذ جاءت مواد البحث مرتبة وفق تسلسلها الهجائي.

وبدأت في كل مبحث بتأصيل الكلمة وإرجاعها إلى جذرها اللغوي الذي انحدرت منه، ثم الإشارة إلى الاستعمال القرآني، وما ورد في الكلمة من قراءات. وكانت كتب اللغة ممثلة بالمعاجم اللغوية أول المصادر المعتمدة في هذا المجال . وكذلك كتب فقه اللغة وكتب البلاغة، إلى جانب كتب إعراب القرآن ومعانيه . وكتب التفاسير وأسباب النزول وكل ما له صلة بالموضوع . مما يعطي صورة واضحة عن البحث، إذ انكشفت الغاية التي من أجلها كان هذا البحث . واتضحت الصورة بما لا يقبل الشك فيها، إذ تبين أن للإعراب أثرا في رسم المعاني التي تنطوي عليها المفردات .

فإن وفقت في ذلك فما هو إلا ممن له الفضل والثناء الحسن، وإن كان غير ذلك فهو من شأن الإنسان الذي خلقه الله تعالى، بهذه الحالة التي يتجلى فيها كمال الخالق . فالعمل الإنساني موصوف بالنقصان، وحسبي أنني توخيت الصواب و بذلت فيه جهدا أحتسبه خالصا لوجهه الكريم وادخره ليوم العرض والحساب، الذي لا ين فع فيه مال ولا بنون ، {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء:٨٩)، ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو حسبنا ونعم المعين.

التمهيد: الدلالة اللغوية للإعراب

١ - الدلالة اللغوية للإعراب:

الإعراب: مصدر على وزن إفعال مأخوذ من الفعل الرباعي أعرب على وزن أفع ل، يقال: أعربت عن الشيء إذا أوضحت عنه، وفعلان معرب عما في نفسه أي مبين له وموضح عنه [١]. وهذه المادة (ع ر ب) في أصل وضعها اللغوي تحمل ثلاثة أصول، أحدها الإبانة والإفصاح وهو المقصود في هذا البحث، والآخر : النشاط وطيب النفس، والثالث : فساد في جسم أو عضو [٢].

ومن استعمالات هذه المادة قولهم : عَرُب لسانه بالضم عروبة أي صار عربيا، وأعرب كلامه إذا لم يلحن في الإعراب. وأعرب بحجته أي أفصح بها ولم يتق أحدا، قال الكميت :

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيم آيةً ... تَأَوَّلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعْرِبُ[٣]

يعني المفصح بالتفضيل والساكت عنه للتقية. والخطاب في هذا البيت لبني هاشم، حين ظهروا على بني أمية . والمقصود بالآية هو قوله عز وجل : (قل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} (الشورى: ٢٣)[٤].

وجاء عن العرب قولهم : أعرب الرجل عن نفسه إذا بين وأوضح، وليس هذا من إعراب الكلام، ومنه قول رسول الله ﷺ: (الثيب تعرب عن نفسها والبكر تستأمر في نفسها)[٥]، أي تفصح.

والأمة التي تسمى العرب فليس ببعيد أن يكون سميت عرباً من هذا القياس ، لأن لسانها أعرب الألسنة، وبيانها أجود البيان، ومما يوضح هذا الحديث الذي جاء فيه : (إن العربية ليست باباً واحداً، ولكنها لسان ناطق). ومما يدل على هذا أيضا قول العرب : ما بها عريب، أي مابها أحد، كأنهم يريدون مابها أنيس يعرب عن نفسه[٦].

والإعراب الذي هو النحو : إنما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ : ألا ترى أنك إذا سمعت قولهم: أكرم سعيد أباه، وشكر سعيدا أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر ، ولولا النحو لجهل أصل الإفادة ، ولو كان الكلام نوعا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه[٧]. فالنحو في الكلام كالملح في الطعام، إذ المعنى أن الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص، كما لا يجدي الطعام ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه وهي التغذية ما لم

---

(١) الخصائص: ٣٧/١.
(٢) ينظر: المقاييس:٧٣٩.
(٣) لم أجده في الديوان، ينظر: شعر الكميت: د. داود سلوم:1 / ٨١.
(٤) ينظر: الصحاح: ٦٨٥.
(٥) مسند أحمد: ١٩٢/٤، وينظر: المقاييس: ٧٣٩.
(٦) ينظر: المقاييس: ٧٣٩.
(٧) ينظر: الخصائص: ٣٦/١، واللسان: ١٥٦/٦، ومقدمة ابن خلدون:٥٤٧.

يصلح بالملح. فالإعراب: هو أن يعرب المتكلم عما في نفسه ويبينه ويوضح الغرض ويكشف اللبس. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى الإعراب لأن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ،وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها[٨].

مما تقدم يتضح أن اللغة العربية تعتمد في أصولها اللغو ية على الإبانة والإيضاح المعتمد على الإعراب؛ إذ عن طريقه يفرق بين المعاني في الفاعل والمفعول والنفي والتعجب والاستفهام، وسائر أبواب هذا النحو من العلم[٩].

ويعرف النحاة الإعراب بأنه: (اختلاف أواخر الكلم باختلاف العوامل لفظا أو تقديرا)[١٠]. وهذا المعنى الإصلاحي للإعراب يمكن أن يفسر بحسب ما يراه الدكتور مهدي المخزومي بأنه : بيان ما للكلمة أو الجملة من وظيفة لغوية، أو من قيمة نحوية، كونها مسندا إليه أو مضافا إليه أو فاعلا أو مفعولا أو حالا، أو غير ذلك من الوظائف التي تؤديها الكلمات في ثنايا الجمل، وتؤديها الجمل في ثنايا الكلام أيضا[١١].

وقسم العلماء إعراب الاسم إلى ثلاثة أنواع : رفع ونصب وجر، فالرفع علم الفاعلية، والنصب علم المفعولية، والجر علم الإضافة . فجعل الرفع الذي هو الأثقل علامة للفاعلية وما أشبهها ويسمى عمدة، وهي المعنى الذي فيه خفة من حيث هو أقل من المفعولية ، لكون الفاعل واحدا والمفعول خمسة، والنصب الذي هو الأخف علما للمفعولية وشبهها ويسمى فضلة، ليعادل ثقل الرفع قلة الفاعلية، وخفة النصب كثرة المفعولية، والجر الذي هو المتوسط بينهما أي أخف من الرفع وأثقل من النصب علم الإضافة، وهي المعنى الذي بين الفاعلية والمفع ولية في القلة والكثرة. وإعراب الفعل: هو الرفع والنصب والجزم[١٢].

ولعل السبب في اهتمام النحاة بالإعراب يرجع إلى أن طلائع اللحن ظهرت في إعراب اللغة قبل ظهورها في مجاري التأليف، كما يشهد بذلك الأسباب التي استفزتهم لوضع النحو . ثم إن الإعراب أسمى حلية تتحلى بها لغة مضر، فليس عجبا أن يستبي الأنظار ويستبد بالهمم، ولهذا استهوتهم مباحثه، ولم تزل ترمي بهم المرامي وهم يتغلغلون في أحشائها، حتى خرجت بهم في بعض الأحيان إلى آراء متنازعة، قد لا يرجى منها الوصول إلى ثمرة شهية أو فائدة علمية[١٣].

المبحث الأول

وظيفة الحركات في اللغة

(٨) أسرار البلاغة:٥٥-٥٦، ودلائل الإعجاز:٦٩.
(٩) المقاييس: ٧٣٩.
(١٠) أسرار العربية: ١٠، والتعريفات: ٢٤.
(١١) في النحو العربي: ٦٧.
(١٢) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون: ١٩٣/٣.
(١٣) ينظر: نظرات في اللغة والنحو: ٣١-٣٢.

يطلق علم اللغة الحديث مصطلح الصوامت على سائر حروف اللغة العربية عدا أحرف المد (الألف والواو والياء). ويطلق مصطلح الصوائت على الحركات وهي (الفتحة والضمة والكسرة)، وكذلك على أحرف المد وهي (الألف والواو والياء)، وهذه الصوائت ما هي إلا علامات دالة على المعاني الإعرابية. فما الصلة بين حروف المد والحركات الإعرابية؟

لقد ذهب ابن جني إلى أن الحركات أصوات ناقصة، وأنها سميت حركات لأنها تحرك الحرف وتقلقله عن موضعه [١٤]. وذلك باجتذابه إلى الحرف الذي هي بعضه ، فإذا كان الحرف ساكنا وحركته بالفتح اجتذبته الفتحة نحو الألف، وإذا حركته بالكسر اجتذبته الكسرة نحو الياء، وإذا حركته بالضم اجتذبته الكسرة نحو الياء، وإذا حركته بالضم اجتذبته الضمة نحو الواو. فلما فعلت تلك الأصوات الناقصة بالحروف ذلك سميت حركات[١٥].

فالعلاقة بين الحروف والحركات وطيدة، وما هذه الحروف إلا امتداد لها؛ لأن وظيفتها الإعرابية واحدة، يقول ابن الأنباري: إن هذه الحركات التي هي الضمة والفتحة والكسرة، حركات إعراب، وإنما أشبعت فنشأت عنها هذه الحروف التي هي الواو والألف والياء. فالواو عن إشباع الضمة، والألف عن إشباع الفتحة، والياء عن إشباع الكسرة. وقد جاء ذلك كثيراً في استعمالهم، قال الشاعر في إشباع الضمة:

اللهُ يَعْلَمُ أنـَّا فِـي تَلَفُّتننَا يَوْمَ الفِرَاقِ إِلَى إِخْوَانِنَا صُورُ
وَأَنَّنِي حَيْثُمَا يَثْنِي الهَوَى بَصَرِي مِنْ حَيثُمَا سَلَكُوا أَدنُو فَأَنْظُورُ [١٦]

أراد فأنظر فأشبع الضم فنشأت الواو، وقال ابن هرمة يرثي ابنه:

فَأَنتَ مِنَ الغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاحِ [١٧]

أراد (بمنتزح) فأشبع فتحة الزاي فتولدت الألف.

وكذلك بالنسبة للكسرة، إذ قال قيس بن زهير العبسي في إشباعها:

أَلَمْ يَأتِيكَ وَالأَنبَاءُ تَنْمِي بِمَا لاَقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ[١٨]

أراد (ألم يأتك) فأشبع الكسرة فنشأت الياء. وإشباع الحركات حتى تنشأ عنها هذه الحروف كثير في كلامهم.

فالواقع أنه ليس بين الحركات وهذه الأحرف من فرق إلا في الكم الصوتي، أما في الكيف فلا فرق بينها. فالحركات أصوات مد قصيرة والأحرف أصوات مد طويلة. وإن الواو ليست إلا ضمة ممطولة، والياء ليست سوى كسرة ممطولة، وكذلك الألف ليست إلا فتحة ممطولة[١٩].

---

(١٤) سر الصناعة: ٣٠/١.
(١٥) الدراسات اللهجية والصوتية: ٣٢٥.
(١٦) الإنصاف: ٢٤/١.
(١٧) اللسان: ٥١٦/٨.
(١٨) مغني اللبيب: ٩٦/١.

فالعلامات الإعرابية. إذن حركات وحروف، والإعراب إما بالحروف أو بالحركات فبالحروف كإعراب الأسماء الخمسة، والمثنى وجمع المذكر السالم. وأما في الفعل فكنون الأفعال الخمسة. وأما بالحركة ففي الاسم كرفع زيد في جاء زيد، وفي الفعل كرفع آخر الفعل المضارع الصحيح الآخر.

وهناك رأيان حول دلالة الحركات على المعاني:

١) الرأي الأول: يرفض أصحاب هذا الرأي أن يكون للحركات الإعرابية دلالة على المعاني، ومن علماء اللغة القدامى من تبنى هذا الرأي وانفرد به هو قطرب[٢٠]؛ إذ يقول: فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني، لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه لا يزول إلا بزواله. وإنما أعربت العرب كلامها، لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل[٢١].

وعن هذا الرأي يقول الدكتور إبراهيم السامرائي: وقد انفرد قطرب في هذا الرأي، ولم يقل بمقالته نحوي أو لغوي آخر غيره من علماء اللغة القدامى[٢٢].

ورد عليه العلماء وفندوا رأيه، فقال المخالفون له ردا عليه: لو كان كما زعم لجاز خفض الفاعل مرة، ورفعه أخرى ونصبه، وجاز نصب المضاف إليه، لأن القصد في هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام. وأي حركة أتى بها المتكلم أجزأته فهو مخير في ذلك. وفي هذا فساد للكلام، وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم[٢٣].

وممن تبنى هذا الرأي من علماء اللغة المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس، إذ ذهب إلى ترجيح ما ذهب إليه قطرب، فهو يقول: ليس للحركات الإعرابية مدلول، وإن الحركات لم تكن تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء، وهي لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في كثير من الأحيان لوصل الكلمات ببعضها[٢٤].

وتصدى لهذا الرأي علماء اللغة وعلى رأسهم الدكتور إبراهيم السامرائي، إذ يصف صاحب هذا الاتجاه بقوله: يحلو له أن يتعصب للرأي بشكل يخيل للقارئ أنه المبدع الأول والمعيد في هذا القول، وكأنه لم يكن هناك في القرن الثاني الهجري رجل اسمه قطرب. وهذا الرأي في جملته غريب وقد انفرد فيه صاحبه، ولم يؤيده فيه إلا الدكتور إبراهيم أنيس بعد أكثر من أحد عشر قرنا، ووجه الخطل في هذا الرأي أن العربية كانت معربة منذ أقدم العصور، والنصوص شاهدة على ذلك[٢٥].

(١٩) ينظر: في النحو العربي: ٦٨.
(٢٠) قطرب: هو محمد بن المستنير تلميذ سيبويه مات سنة ٢٠٦هـ.
(٢١) الإيضاح في علل النحو: ٧٠.
(٢٢) ينظر: فقه اللغة المقارن: ١٢١.
(٢٣) الإيضاح في علل النحو: ٧١.
(٢٤) من أسرار اللغة: ١٥٨.
(٢٥) فقه اللغة المقارن: ١٢١.

٢) الرأي الثاني: ذهب أصحاب هذا الرأي إلى دلالة حركات الإعراب على المعاني، وهناك شبه إجماع بين العلماء القدامى والمحدثين على أن الحركات دوال على معان. وممن ذهب إلى هذا الرأي ابن قتيبة، الذي يرى الإعراب حلية وزينة في اللغة، فهو يقول: ولها الإعراب الذي جعله الله وشيا لكلامها، وحلية لنظامها، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين، والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول، لا يفرق بينهما، إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب[٢٦].

وممن أخذ بهذا الرأي الزجاجي، إذ يقولك:

إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، بل كانت مشتركة، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني[٢٧].

وأعطى ابن جني للإعراب وظيفة مهمة في توضيح المعاني، وإزالة الالتباس الحاصل بفقدان علامات الإعراب. وذهب إلى أن الرفع والنصب والجر والجزم من فعل المتكلم وحده؛ إذ يقول: فأما في الحقيقة ومحصول الحديث، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم، إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره[٢٨].

وذهب ابن فارس إلى ذلك، إذ يقول: فأما الإعراب ففيه تميز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين... وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها: فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني[٢٩].

ويعد ابن فارس الإعراب في اللغة العربية علما من العلوم، إذ يقول: من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر ولا نعت من تأكيد[٣٠].

وتعد ظاهرة الإعراب في اللغة العربية إحدى صفاتها الأساسية الموغلة في القدم، وما تزال تحتفظ بها بخلاف اللغات العربية القديمة (الجزرية) التي فقدت هذه الظاهرة منذ عصور قديمة[٣١]. يقول يوهان فك بهذا الصدد: لقد احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات العربية القديمة – باستثناء البابلية القديمة – قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي[٣٢].

(٢٦) تأويل مشكل القرآن: ١٨.
(٢٧) الإيضاح في علل النحو: ٦٩.
(٢٨) الخصائص: ٣٧/١، ١١٠/١-١١١.
(٢٩) الصاحبي: ٤٣.
(٣٠) الصاحبي: ٤٣، والمزهر: ٣٢٧/١-٣٢٨.
(٣١) الفعل زمانه وأبنيته: ٢٢١.
(٣٢) العربية: ٧.

واللغة العربية لم تكن وحدها تمتلك هذه السمة اللغوية، بل هي سمة جزرية، أكدها طائفة من الباحثين، فالمستشرق الألماني برجشتراسر يقول: إن الإعراب (سامي) الأصل[٣٣]، تشترك فيه اللغة الأكدية وفي بعضه اللغة الأثيوبية (الحبشية) ونجد آثاراً منه في غيرها[٣٤].

ففي اللغة الأكدية وجد الإعراب بحركاته الثلاث ثم تطور إلى حركتين هما الضمة في حالة الرفع، والفتحة في حالتي النصب والجر، وما برحت هذه المرحلة حتى تطورت إلى مرحلة الحركة الواحدة وهي الكسرة الممالة[٣٥].

وبقيت آثار الإعراب بالحركات الثلاث كاملة في البابلية القديمة، إلا أنها اندثرت فيما بعد، وما تزال آثار الإعراب موجودة في كل من اللغة الحبشية والآرامية والآشورية[٣٦].

فالحركات في اللغة العربية دوال على معان، بل إن من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعاني، وفي ذلك يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى: وما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها كل الحرص وهي لا تعمل في تصوير المعنى شيئا. ونحن نعلم أن العربية لغة الإيجاز، وإن العرب كانوا يتخففون ما وجدوا السبيل، ويحذفون الكلمة إذا فهمت والجملة إذا ظهر الدليل عليها، والأداة إذا لم تكن الحاجة ملجئة إليها[٣٧].

والعلامات الإعرابية: هي مصوتات تأتي لوظائف دلالية في التركيب النحوي ، فثمة علاقة قوية بين الأصوات اللغوية والنظام النحوي ، ولا يمكن الفصل بينهما لأن النحو نظام يربط بين الأصوات والمعاني[٣٨]. كما أنها تحدد وظيفة الكلمة في الجملة.

وإن الأخبار كثرت عن أن العرب كانت تدرك أن الاختلاف في حركات الإعراب، يؤدي إلى اختلاف المعاني. ومن الأمثلة على ذلك: فإن من أقسام الفاعل والمفعول ما لا يفهم إلا بعلامة، كتقديم المفعول على الفاعل، فإنه إذا لم يكن ثمَّ علامة تبين أحدهما من الآخر وإلا أشكل الأمر، وعلى هذا ما ورد في قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفوُرٌ}(فاطر:٢٨).

وكذلك لو قال قائل: ما أحسن زيد، ولم يبين الإعراب في ذلك لما علمنا منه المراد؛ إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه، أو يريد به الاستفهام عن أي شيء منه أحسن، ويحتمل أن يريد به الإخبار بنفي الإحسان عنه، ولو بين الإعراب في ذلك فقال: ما أحسنَ زيداً! وما أحسنُ زيدٍ؟ وما أحسنَ زيدٌ،علمنا غرضه وفهمنا مغزى كلامه، لا انفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يعرف به

(٣٣) ارتأى قسم من الباحثين إطلاق مصطلح اللغات العربية القديمة أو الجزرية، بدلاً من اللغات السامية ؛لأن هذا المصطلح الأخير غير دقيق ؛ إذ استخدم في العصر الحديث، للدلالة على اليهود دون غيرهم، للمزيد حول ذلك. (ينظر: اللغة الأكدية: د. عامر سليمان:٦٧).
(٣٤) التطور النحوي: ٧٥.
(٣٥) الفعل زمانه وأبنيته: ٢٢١.
(٣٦) فقه اللغات السامية: ١٠٢.
(٣٧) إحياء النحو: ٥٠.
(٣٨) ينظر: المنهج الوصفي في كتاب سيبويه: ٢٤٦.

من الإعراب، فما في المثال الأول للتعجب، وفي المثال الثاني للاستفهام، وفي المثال الثالث للنفي، فوجب حينئذ بذلك معرفة النحو؛ إذ كان ضابطا لمعاني الكلام حافظا لها من الاختلاف[٣٩].

ومن ذلك ما ورد من أنه: دخل على الوليد بن عبد الملك رجل من أشراف قريش، فقال له الوليد: مَنْ خَتَنَكَ؟ بفتح النون، قال له: فلان اليهودي، فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلك تسأل عن ختني يا أمير المؤمنين؟ هو فلان ابن فلان[٤٠]. فهذا الخبر وأمثاله؛ إن دلت على شيء فإنما تدل على أن حركات الإعراب كانت هي المحددة للمعاني التي يقصد إليها المتكلم.

مما تقدم يتضح أن اللغة العربية هي لغة الفصاحة والإبانة والإعراب، بما تحمله من سمات لصقت بها على مر العصور، منذ ولادتها وحتى عصرنا الحاضر، ولابد لنا من بيان ذلك من تقديم الأدلة والشواهد، وهو ما سيأتي من خلال الشواهد القرآنية ومدى تأثير الحركات الإعرابية في تغيير المعنى.

المبحث الثاني: باعد

وردت كلمة باعد في القرآن الكريم، بحسب رسم المصحف برواية حفص عن عاصم على صيغة فعل الأمر (باعد) من الفعل الرباعي على وزن فاعل. وترجع هذه الكلمة إلى مادة (ب ع د)، ولهذه المادة في وضعها اللغوي أصلان هما: خلاف القرب، ومقابل قبل. وفي المعنى الأول قالوا: بعد يبعد فهو بعيد. وباعدته مباعدة، لأن الفعل الرباعي إذا كان على وزن (فاعل)، فإن مصدره يأتي على وزن (فعال) و(مفاعلة). وأبعده الله نحاه عن الخير، وباعد الله بينهما وبعد. وهذا المعنى هو المراد من البحث. والمنى الآخر: ضد قبل، ومنه قولهم: هو من بعد ومن قبل، لأنهما غايتان مقصود إليهما، فإذا لم يكن بعد وقبل غاية فهما نصب لأنهما صفة. قال الخليل: بعد بغير تنوين على الغاية مثل قولك: ما رأيته قط، فإذا أضفته نصبت، إذا وقع موقع الصفة، كقولك: هو بعد زيد قادم[٤١].

وجاءت كلمة (باعد) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي الأول، الذي هو ضد القرب، في قوله عز وجل مخبرا عن قوم سبأ: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (سبأ:١٩﴾.

وردت في هذه الكلمة عدة قراءات، فمنهم من قرأها على صيغة فعل الأمر كما هي الحال في المصاحف التي بين أيدينا، ومنهم من قرأها على صيغة الفعل الماضي، ففيها عدة أوجه من القراءات[٤٢]:

---

(٣٩) ينظر: المثل السائر: ١/ ٢٤.
(٤٠) العقد الفريد: ٤٨٠/٢.
(٤١) ينظر: العين: ٧٩، والمقاييس: ١٢٤.
(٤٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس : ٧٩٠، والنشر في القراءات العشر :٢٦٢/٢، وتقريب النشر في القراءات العشر: ٢٣٦.

١) القراءة الأولى: (بَاعِدْ) بصيغة فعل الأمر على وزن (فاعل) وهي قراءة الحسن ونافع وعاصم وحمزة والكسائي وغيرهم، وهي الأشهر من بين القراءات. وعليها رسم المصحف.

٢) القراءة الثانية: (بَعِّدْ) وجاءت على صيغة فعل الأمر أيضا، لكنها على وزن (فَعِّلْ)، فالمعنى واحد، كما يقال: قَارِبْ وقَرِّبْ، ومعنى القراءتين على ما روي عن قتادة أنه قال: كانوا آمنين يخرجون إلى أسفارهم ولا يتزودون، يبيتون في قرية ويقيلون في قرية، فبطروا النعمة فقالوا: ربنا بَعِّدْ بين أسفارنا فعاقبهم الله عز وجل. وهذه قراءة أبي عمرو ابن العلاء، وابن كثير.

٣) القراءة الثالثة: (بَاعَدَ) فعل ماض في موضع الخبر، وهي قراءة يعقوب الحضرمي، وقد فسرها ابن عباس ﷺ بقوله: شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم.

٤) القراءة الرابعة: (بَعَّدَ): وهي قراءة يحيى بن يعمر، وعيسى بن عمر، وتروى عن ابن عباس ﷺ، وهي على صيغة الفعل الماضي أيضا.

٥) القراءة الخامسة: (بَعُدَ) وهي على صيغة الفعل الماضي، وهي قراءة سعيد بن أبي الحسن، وهو أخو الحسن البصري(٤٣).

وعن هذه القراءات قال الزجاج: فمن قرأ (بَعُدَ) بضم العين، فالمعنى بعد ما بين أسفارنا، وبعد سيرنا بين أسفارنا(٤٤).

مما تقدم يتضح أن هذه القراءات جاءت بصيغة فعل الأمر الأولى والثانية (بَاعِدْ) (وبَعِّدْ) فعلى وجه المسألة والدعاء، ويكون المعنى: أنهم سئموا الراحة وبطروا النعمة، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى، وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد، فعجل الله لهم الإجابة(٤٥).

وأما القراءات الأخرى بصيغة الفعل الماضي: فالمعنى خلاف الأول، وهو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفههم، كأنهم كانوا يتشاجون على ربهم ويتحازنون عليه(٤٦).

فهذا الاختلاف في القراءات أدى إلى اختلاف المعنى، وهذا ما أشار إليه ابن قتيبة إذ يقول: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها، ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب(٤٧). فكلمة باعد جاءت بصيغة فعل الأمر مرة، الذي خرج إلى معنى الدعاء، وبصيغة الفعل الماضي، عندما استجاب الله دعوتهم، ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر. حيث شردوا

---

(٤٣) إعراب القرآن للنحاس: ٧٩٠.
(٤٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٨٩/٤، واللسان: ٤٥٣/١.
(٤٥) ينظر: الكشاف: ٨٧٢، وتفسير القرآن العظيم: ٢٥٠/٦.
(٤٦) الكشاف: ٨٧٢. ومعنى يتشاجون: هي مرادفة لكلمة يتحازنون ، ومنه قولهم: تشاجت فلانة على زوجها : إذا تحازنت عليه. (ينظر: الأساس: ٣٢٢. مادة (شجو).
(٤٧) تأويل مشكل القرآن: ٣١.

ومزقوا في أنحاء الجزيرة مبددي الشمل، وعادوا أحاديث يرويها الرواة، وقصة على الألسنة والأفواه. بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة(٤٨).

المبحث الثالث: الحمد

الحمد مأخوذ من مادة (ح م د)، ولهذه المادة أصل واحد يدل على خلاف الذم ، يقال: حمدت فلاناً أحمده، ورجل محمود ومحمد إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة ،، والتحميد: كثرة حمد الله بحسن المحامد، والحمد الثناء(٤٩).

والحمد لله تعالى الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر، فالشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكل شكر حمد وليس كل حمد شكراً(٥٠). ووردت كلمة الحمد في فاتحة الكتاب بالحركات الثلاث، وهي تفيد دلالات مختلفة تبعاً لاختلاف الحركات، ومما يتجلى فيه ذلك قوله تعالى: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الفاتحة٢)، ففي الحمد عدة قراءات، هي: الضم والفتح والكسر.

(١) قراءة الضم : وهي من القراءات السبع ؛ إذ أن القراء السبعة قرأوا بضم الدال في قوله تعالى : (الحَمْدُ)، ويكون إعرابه إما مبتدأ أو خبراً . فالحمد بالرفع : يدل على الابتداء، للدلالة على ثبوت الحمد واستقراره لله تعالى، غير أن النصب لايعدو المتكلم (٥١).

(٢) قراءة النصب : رويت هذه القراءة عن سفيان بن عيينة ، ورؤبة بن العجاج أنهما قالا : (الحَمْدَ)، بالنصب وهي على إضمار فعل. فمن نصب فإنه يقول : إن (الحمدَ) ليس باسم، إنما هو مصدر، فيجوز أن يقول: أحمدُ الله، فإذا صلح مكان المصدر جاز فيه النصب، ومن ذلك قوله تعالى: {فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ } (محمد:٤)، بمعنى فاضربوا الرقاب، ومنه قول العرب: سقياً لك، ورعياً لك، يجوز مكانه سقاك الله، ورعاك الله (٥٢).

(٣) قراءة الكسر : وهي قراءة الحسن وزيد بن علي (الحمْدِ للهِ)، بكسر الدال إتباعاً للأول الثاني، أي على إتباع الدال اللام في حركتها ، وذلك أن الدال مضمومة وبعدها لام الإضافة مكسورة، فكرهوا أن يخرجوا من ضم إلى كسر فأتبعوا الكسر الكسر (٥٣).

وهذه الوجوه في كلمة الحمد وإن كانت سائغة في العربية ، فإنه لا يقرأ بشيء من ذلك إلا بما عليه الناس في كل مصر، (الحمدُ لِلهِ) بضم الدال وكسر اللام(٥٤).

(٤٨) في ظلال القرآن: ٢٩٠٢/٥.
(٤٩) ينظر: العين: ٢١١، والمقاييس: ٢٦٢.
(٥٠) ينظر: المفردات: ١٣٨.
(٥١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه:٧/١، وإعراب القرآن، للنحاس: ١٢.
(٥٢) ينظر: معاني القرآن، للفراء: ٣/١، ومعاني القرآن، للأخفش:١٨، ومعاني القرآن وإعرابه: ٧/١.
(٥٣) ينظر: معاني القرآن، للأخفش:١٩، وإعراب ثلاثين سورة: ٣٠، والإتقان: ٢ /٢٠٠.
(٥٤) ينظر: إعراب ثلاثين سورة: ٣٠.

وكلمة الحمد التي افتتح بها كتاب الله المبين ، تعد سنة متبعة في كل الخطب ولاسيما الدينية منها كخطب الجمعة والأعياد وما إليها . وكذلك درج ا لناس على افتتاح كلامهم بتحميد الله وتمجيده، ويختتمونه بمثل ما ابتدأوا به، فله الحمد الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه، في الأولى والآخرة الذي بحمده تتم الصالحات(٥٥).

وجاءت قراءة الرفع مثبتة في رسم المصحف، التي اعتمدها المسلمون في كافة الأمصار ؛ لأنها تدل على ثبات الحمد ودوامه لله تعالى في جميع الأحوال والأوقات . فالخالق سبحانه يستحق الحمد كله في السراء والضراء ، ولا يحمد على المكروه سواه ؛ ولذلك قال أحد أصحاب رسول الله ﷺ: (أفضل الدعاء الحمد لله، لأنه يجمع ثلاثة أشياء: ثناء على الله، وشكراً له، وذكراً له)(٥٦).

فالعلامة الإعرابية تدل على مباني الكلمة ، فالمصادر على أبنية متعددة وكلها مبان ذات وظائف نحوية ، فالنصب هنا يمنح دلالة نيابة المصدر عن فعله ، في حين لم يكن من وظيفة الرفع منح هذه الوظيفة، بل خلق لأن يمنح معنى الثبوت والاستقرار (٥٧).

المبحث الرابع: حمالة الحطب

الأصل اللغوي لمادة (ح م ل) يدل على إقلال الشيء، يقال: حملت الشيء أحمله حملا. والحمل ما كان في بطن أو على رأس شجر، يقال: امرأة حامل وحاملة(٥٨).

والحمل: ما يحمل على الظهر، أو هو رفع الشيء من مكانه، وقد يكون رفع الإنسان عن مجلسه. والأصل في ذلك الحمل على الظهر، ثم استعير للحبل. فأصل الوضع واحد، ثم اختلفت الدلالة، وتنوع الاستعمال، فقالوا في الأثقال المحمولة في الظاهر، كالشيء المحمول على الظهر حِمْل، وفي الأثقال المحمولة في الباطن حَمْل، كالولد في البطن، والماء في السحاب والثمرة في الشجرة تشبيها بحمل المرأة(٥٩).

وكذلك ذهب بعض اللغويين إلى التفريق بين الدلالتين فقال: ما كان لازما للشيء فهو حَمْل، وما كان بائنا فهو حِمْل. وقال غيره: كل متصل حَمْل، وكل منفصل حِمْل، فحَمْل الشجرة مشبه بحَمْل المرأة لاتصاله، فلهذا فتح، وهو يشبه حمل الشيء على الرأس لبروزه وليس مستبطنا كحمل المرأة(٦٠).

(٥٥) ينظر: أسماء الله الحسنى، لابن القيم: ١٢.
(٥٦) إعراب ثلاثين سورة: ٣١.
(٥٧) التوجيه اللغوي: ٢٨٧.
(٥٨) المقاييس: ٢٦٤.
(٥٩) المفردات: ١٣٩، وبصائر ذوي التمييز: ٥٠١/٢.
(٦٠) ينظر: اللسان: ٦٠٢/٢.

مما تقدم يتضح أن الحمل بالفتح يكون للشيء الحي سواء كان حيوانا أم نباتا، ووصف هذا الحمل بأنه خفي في البطن، أو تحت أغصان الشجر، كما قيل عنه: بأنه لازم للشيء ملتصق به غير منفصل، بخلاف الحمل الذي يكون ظاهرا مكشوفا غير ملازم للشيء بل منفصلا عنه.

واستعملت المادة مجازا، فقالوا: حمالة الحطب كناية عن االنمّام، وفلان يحمل الحطب الرطب أي: ينم قال الشاعر[٦١]:

نِعْمَ المُعِينُ عَلَى احْتِمَا ... لِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الجَهُولُ

عِلْمِي بِأَنَّكَ مَيِّتٌ ... وَمُسَاءَلٌ عَمَّا تَقُولُ

وحمَّالة: على وزن (فعَّالة)، صيغة مبالغة تعني أنها كانت تكثر من هذا الفعل وهو حمل الحطب على ظهرها، وتضعه في طريق رسول الله ﷺ، وعبر القرآن الكريم بحمالة الحطب كناية عن النميمة التي كانت تمشي بها، ونزلت في حق أم جميل امرأة أبي لهب.

وقد ناصب أبو لهب وامرأته النبي ﷺ العداء، وتجد هذا العداء بالقول والفعل، فأنزل الله تعالى بحقهما سورة المسد، التي جاء في سبب نزولها عن ابن عباس ﷺ، أن النبي ﷺ، خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا تباً لك فأنزل الله عز وجل: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}(المسد:١﴾ إلى آخرها[٦٢].

وأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى، وكنيته أبو عتبة وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذى لرسول الله ﷺ، والازدراء به والتنقص له ولدينه[٦٣].

وفي ﴿حمالة﴾ قراءتان هما: قرأ عاصم (حمالةَ) بالنصب، وقرأ الباقون (حمالةُ) بالرفع[٦٤].

ومن قرأ بالنصب وهي قراءة حفص عن عاصم المثبتة في معظم المصاحف، ففي هذه القراءة قولان: أحدهما أنه منصوب على الحال، لأنه يجوز أن تدخل فيه الألف واللام، فلما حذفتا نصب على الحال. والقول الآخر أنه منصوب على الذم. والتقدير: أعني حمالة الحطب، أو كأنه قال: أشتم حمالة الحطب، وأذمها. والعرب تنصب على الذم كما تنصب على المدح[٦٥].

(٦١) بصائر ذوي التمييز: ٥٠٢/٢.
(٦٢) صحيح البخاري: ٣١٢/٣، وأسباب النزول، للواحدي: ٢٦٨.
(٦٣) تفسير القرآن العظيم: ٣١٨/٨.
(٦٤) الحجة في القراءات السبع:٢٤٩، والنشر في القراءات العشر:٣٠٢/٢، وتقريب النشر في القراءات العشر: ٢٦٣.
(٦٥) ينظر: معاني القرآن، للفراء: ٢٩٨/٣، ومعاني القرآن، للأخفش: ٣١٤.

ومن قرأ (حمالةُ) بالرفع ففيه قولان: أحدهما: أنه نعت لامرأته، والآخر أنه خبر الابتداء[٦٦]. وفي نعتها هذا قولان: الأول: إنه تخسيس لها وعقوبة لإيذائها النبي ﷺ. والقول الآخر: أن يكون له زوجات غيرها فنعتت بهذا للفرق بينها وبينهن[٦٧].

ويقصد بهذه المرأة أم جميل أروى بنت حرب أخت أبي سفيان، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. كما يقال: للمشَّاء بالنمائم المفسد بين الناس، يحمل الحطب بينهم، أي يوقد بينهم النائرة ويورث الشر، قال الشاعر:

مِنَ البِيضِ لَمْ تَصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لأمَةٍ ... وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الحَيِّ بِالحَطَبِ الرَّطْبِ

جعل الحطب رطبا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر[٦٨].

وحمل الحطب كناية عن النميمة، لأنها توقع بين الناس الشر وتشعل النيران كالحطب الذي تذكى به النار. ويقال: إنها كانت موسرة وكانت لفرط بخلها تحمل الحطب على ظهرها، فنعى الله هذا القبيح من فعلها[٦٩].

ومرَّ الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، وأم جميل جدته، والأحوص ينشد، فقال له ممازحاً: إنك يا أحوص لشاعر ولكنك لا تعرف الغريب ولا تغرب؟ فقال: بلى وقت قلت معرضا بأم جميل:

مَا ذَاتَ حَبْلٍ يَرَاهُ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... وَسْطَ الجَحِيمِ فَلا تَخْفَى عَلَى أَحَدِ
تَرَى حِبَالَ جَمِيعِ النَّاسِ مِنْ شَعَرٍ ... وَحَبْلُهَا وَسْطَ أَهْلِ النَّارِ مِنْ مَسَدِ

فقال الفضل يرد عليه[٧٠]:

مَاذَا تُحَاوِلُ مِنْ شَتَمِي وَمَنْقَصَتِي ... أَمْ مَا تُعَيِّرُ مِنْ حَمَّالَةِ الحَطَبِ
غَرَّاءُ شَادِخَةٌ فِي المَجْدِ غُرَّتُهَا ... كَانَتْ سَلِيلَةَ شَيْخٍ ثَاقِبِ الحَسَبِ
أَفِي ثَلاثَةِ رَهْطٍ أَنْتَ رَابِعُهُمْ ... عَيَّرْتَنِي وَاسِطاً جُرْثُومَةَ العَرَبِ
فَلا هَدَى اللَهُ قَوماً أَنْتَ سَيِّدُهُمْ ... فِي جَلْدِهِ بَيْنَ أَصْلِ الثِّيلِ وَالذَّنَبِ

ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها، حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع. وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه[٧١]؛ إذا يكون العذاب من جنس العمل كما جاء في بعض الأثر.

ومن ذلك يتضح أن الحركات الإعرابية، لها دور في تحديد الدلالة، فقراءة النصب تفيد الشتم والتحقير. أما قراءة الرفع، فتكون حمالة خبر الابتداء وهو امرأته، أو أنه نعت لها.

---

(٦٦) معاني القرآن وإعرابه: ٢٨٩/٥.
(٦٧) إعراب القرآن، للنحاس: ١٣٧٦.
(٦٨) الكشاف: ١٢٢٧.
(٦٩) غريب القرآن، للسجستاني: ١٩٧.
(٧٠) إعراب ثلاثين سورة: ٢٤٣.
(٧١) الكشاف: ١٢٢٨.

المبحث الخامس: راعنا

ترجع هذه الكلمة إلى مادة (ر ع ن)، ولهذه المادة في أصل وضعها اللغوي أصلان: أدهما يدل على تقدم في شيء، والآخر يدل على هوج واضطراب(٧٢). يقال: رعن الرجل يرعن رعنا فهو أرعن، أي أهوج والمرأة رعناء، إذا عرف الموق والهوج في منطقها. والرعونة: الحمق والاسترخاء(٧٣). يقال: رعنته الشمس: آلمت دماغه، فاسترخى لذلك وغشي عليه. ورعن الرجل، فهو مرعون إذا غشي عليه، وأنشد:

بَاكَرَهُ قَانِصٌ يَسْعَى بِأَكْلُبِهِ كَأَنَّهُ مِنْ أُوَارِ الشَّمْسِ مَرْعُونِ(٧٤)

أي مغشي عليه.

والأرعن هو الأهوج في منطقه المسترخي. وهذا هو المعنى المقصود من البحث. وهي كلمة يراد بها الانتقاص من الرسولﷺ، في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۚوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة١٠٤). وعن سبب نزول هذه الآية يقول ابن عباس رضي الله عنه:

إن العرب كانوا يتكلمون بها، فلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبي ﷺ، أعجبهم ذلك وكان (راعنا) في كلام اليهود سبا قبيحا، فقالوا: إنا كنا نسب محمدا سرا، فالآن أعلنوا السب لمحمد فإنه من كلامه، فكانوا يأتون نبي الله ﷺ، فيقولون: يا محمد راعنا ويضحكون، ففطن بها رجل من الأنصار وهو سعد بن عبادة، وكان عارفا بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله والذي نفس محمد بيده لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه، فقالوا: ألستم تقولونها؟ فأنزل الله تعالى: الآية(٧٥).

وفي كلمة (راعنا) وجهان: الأول: إذا لم تنون: من راعيت أي حافظت وتعاهدت(٧٦). وجاءت بصيغة الأمر من المراعاة، وكانوا يقولون له ذلك. أي راقبنا وحافظ علينا من راعيت الرجل إذا تأملته وتعرفت أحواله(٧٧).

وكان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ، إذا ألقى عليهم شيئا من العلم راعنا يا رسول الله، أي: راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت هذه الكلمة لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية، وهي (راعينا)، فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا افترصوه، وخاطبوا به الرسول

(٧٢) المقاييس: ٣٨٩.
(٧٣) ينظر: العين: ٣٥٦، والصحاح: ٤١٥.
(٧٤) اللسان: ١٧٩/٤.
(٧٥) أسباب النزول، للواحدي: ١٧، وتفسير الجلالين: ٢٧.
(٧٦) مجاز القرآن: ٣٢.
(٧٧) غريب القرآن، للسجستاني: ١٢.

ﷺ، وهم يعنون به تلك المسبة. فنهي المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها وهو انظرنا من نظره إذا انتظره. وقرأ عبد الله بن مسعود (راعونا) على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير(٧٨).

والوجه الثاني: (راعناً)، وهي قراءة الحسن، وهو اسم منون منصوب على أنه مصدر أو نصبه بالقول أي لا تقولوا رعونة(٧٩).

ومن نون جعلها كلمة نهوا عنها، لآنها مأخوذة من الرعونة، أي لا يقولوا حمقا وجهلا(٨٠).

وراعنا منسوبا إلى الرعن بمعنى رعينا كدارع ولابن، لأنه لما أشبه قولهم راعينا، وكان سببا في السب اتصف بالرعن(٨١).

وإن الله تعالى نهى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في أقوالهم وأفعالهم، لأن اليهود كانوا يستعملون الكلام الذي فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص عليهم لعنة الله، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولوا راعنا فيورون بالرعونة. وكذلك جاءت الأحاديث بالأخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون السام عليكم. والسام هو الموت ولذلك أمرنا أن نرد عليهم: وعليكم، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا. ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة. فقال رسول الله ﷺ:(يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله)، فقالت: ما سمعت ما قالوا؟ فقال:(أوليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت: وعليكم)(٨٢).

مما تقدم يتضح أن كلمة (راعنا) لها دلالتان: الأولى فعلية: بمعنى: ارعنا، أي راعنا سمعك وحافظ علينا. والثانية: اسمية: إذا نونت، فهي كلمة نهوا عنها، لأنها تطلق على النبي على سبيل التهكم يقصدون رميه بالرعونة أي الحمق.

المبحث السادس: المجيد

المجيد اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يرجع إلى مادة (م ج د)، وهي أصل صحيح يدل على السعة وبلوغ النهاية، ولا يكون إلا في محمود. ومنه المجد بلوغ النهاية في الكرم، والله مجيد له المجد العظيم الذي لا كرم فوق كرمه، وكل وصف من أوصافه وأسمائه قد بلغت غاية المجد، فليس في شيء منها قصور أو نقصان(٨٣). وبهذا المعنى قال عمرو بن كلثوم:

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ نُطَاعِنُ دُونَـهُ حَتَّـى يَبِينَا(٨٤)

(٧٨) الكشاف: ٩٠.
(٧٩) إعراب القرآن، للنحاس: ٥٩.
(٨٠) غريب القرآن، للسجستاني: ٩.
(٨١) الكشاف: ٩٠.
(٨٢) ينظر: صحيح مسلم: ١٠٩٧، و تفسير القرآن العظيم: ١٧٩/١.
(٨٣) ينظر: المقاييس: ٩٣٩، وأسماء الله الحسنى، لابن القيم:٣٤٣.
(٨٤) شرح المعلقات السبع: ١٧٥.

والتمجيد: هو القول من العبد في تعظيم الله والثناء عليه كأنه يصفه بأفضل الصفات فيصفه بالعظمة التامة(٨٥). والتمجيد أيضاً: "هو أن تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله "(٨٦). قال أمية بن أبي الصلت:

مَجِّدُوا اللهَ وَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ رَبُّنَا فِى السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيراً(٨٧)

ووردت المادة في القرآن الكريم في أربعة مواضع منه ، وجاءت بصيغة (مجيد) على وزن فعيل فقط، ويراد بها اسم من أسماء الله الحسنى . أو تأتي صفة للقرآن الكريم . ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)[هود:٧٣]. ومجيد: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: شريف رفيع تزيد رفعته على كلّ رفعة ، ويزيد شرفه على كل شرف(٨٨). فكرم الله يزيد على كل كرم ولا كرم فوق كرمه.

وقد جمع الغزالي المع نيين في بيان دلالة المجيد ، إذ قال: "المجيد هو الشريف ذاته الجميل أفعاله الجزيل عطاؤه ونواله. فكما أن شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمّي مجداً وهو الماجد أيضاً. ولكن أحدهما أدل على المبالغة ، وكأنه يجمع معنى اسم الجليل والوهاب والكريم "(٨٩). ويريد به المجيد؛ لأن صيغة فعيل أكثر مبالغة من فاعل.

ولمّا أنعم على إبراهيم وأهل بيته بالمواهب السنية التي لا مزيد عليها ناسب ذلك أن يؤتى بصفة المجيد: التي تعني الزيادة في الكرم والعطاء من الله تعالى ، التي ليس كمثلها شيء في الزيادة . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) [البروج:١١٤-١٥]. ويقرأ المجيد بالرفع والجر (٩٠)، فالرفع: على أنّه صفة لله عز وجل مردوداً على قوله : {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} (البروج :١٤) المجيد ذو العرش، فأخره ليوافق رؤوس الآي ، ودليله قوله : {إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ}(هود:٧٣). والجر من وجهين : أحدهما أن يكون مجروراً على أنه وصف للعرش ، ودليله قوله تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}(غافر:١٥). والثاني: على أن يكون صفة (ربّك) من قوله تعالى: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) [البروج:١٢]. ومما يقوى هذا الوجه أنّ المجيد من صفات الله، فكان جعله وصفاً للربّ أولى (٩١). لأنّ المجد هو النهاية في الكرم والفضل والله سبحانه هو المنعوت بذلك.

ولقد جاء الاستعمال القرآني لهذه المادة بمعنى الزيادة في الوصف والمبالغة فيه ، سواء في وصف القرآن الكريم أم في وصف الله تعالى ، فالقراءة هي التي تحدد المعنى؛ إذ تغيرت دلالة

(٨٥) الزينة: ١١٥/٢.
(٨٦) ينظر: الزينة: ١١٥/٢.
(٨٧) الديوان: ٢٦، وينظر: الاختلاف في اللفظ: ٣٥.
(٨٨) غريب القرآن، للسجستاني: ١٧٨.
(٨٩) المقصد الأسنى: ٨٨ ـ ٩٦.
(٩٠) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (ذو العرش المجيد) رفعاً، وقرأ حمزة والكسائي : (ذو العرش المجيد) خفضاً (ينظر: كتاب السبعة: ١٦٨٧).
(٩١) ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٢٤٢.

المجيد بتغير القراءة، فبالكسر تكون وصفاً للعرش، في حين أن قراءة الضم تجعله وصفاً للخالق عزّ وجلّ، وبذلك يتضح تأثير الحركة في الدلالة.

المبحث السابع: مصر

من الكلمات التي جاءت في القرآن الكريم (مصر)، والتي يتبين فيها تغير الدلالة، بحسب تغير الحركة الإعرابية. ومصر هي المدينة المعروفة الآن باسم القاهرة: عاصمة جمهورية مصر العربية، كما أنه يطلق أحياناً على الدولة كلها القطر المصري.

والأصل اللغوي لهذه الكلمة (مصر) هو الحد الحاجز بين الشيئين، يقال: إن أهل هجر يكتبون في شروطهم: اشترى فلان الدار بمصورها، أي بحدودها، قال عدي بن زيد العبادي:

وَجَعَلَ الشَّمْسَ مِصَراً لَا خَفَاءَ بِهِ بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيلِ قَدْ فَصَلَا[٩٢]

والمصر: كل كورة تقام فيها الحدود، وتغزى منها الثغور، ويقسم فيها الفيء والصدقات من غير مؤامرة الخليفة. وقد مَصَّرَ الأمصار: أي بناها عمر بن الخطاب ﷺ سبعة أمصار منها المصران: البصرة والكوفة، فالأمصار عند العرب تلك[٩٣].

وعن سبب تسميتهما بالمصرين، قال ابن الأعرابي: قيل لهما المصران، لأن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: لا تجعلوا البحر فيما بيني وبينكم مصروها، أي صيروها مصرا بين البحر وبيني أي حدا[٩٤]. وكلمة مصر يجوز فيها التذكير فتصرف، والتأنيث فتمنع من الصرف للعلمية والتأنيث[٩٥]. ولا تختص مصر ببلد معين فحسب، بل قد تكون اسما لكل بلد ممصور أي محدود، يقال: مصرت مصرا أي بنيته[٩٦]. وتجمع هذه الكلمة على أمصار.

وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في خمسة مواضع منه، ومنها ما جاء في الخطاب الموجه لبني إسرائيل في قوله عز وجل:)اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ((البقرة: ٦١). فكلمة مصر تحتمل وجهين: إما أنها تعني البلد المعروف وقد صرفه لخفته، وإما أن يكون المراد بها بلدا من البلدان.

ويخضع هذان المعنيان لما ورد في كلمة مصر من قراءات. قال الزجاج: الأكثر في القراءة إثبات الألف، أي تنوين كلمة مصر. وقد قرأ بعضهم ﴿اهبطوا مصر فإن لكم﴾ بغير ألف، فمن قرأ مصرا بالألف فله وجهان جائزان أن يراد بها مصرا من الأمصار، لأنهم كانوا في تيه، وجائز أن يكون أراد مصر بعينها، فجعل مصرا اسما للبلد فصرف لأنه مذكر سمي به مذكر، وعلى أنه اسم لمدينة يجوز صرفه أيضا، لأنه ثلاثي ساكن الوسط، مثل قوله تعالى: (وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ}(الأنعام:٨٤). و قوله تعالى: (وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) (الأنعام: ٨٦).

(٩٢) الصحاح: ٩٩٠، والمقاييس: ٩٥١.
(٩٣) ينظر: العين: ٩١٣، والأساس: ٥٩٦.
(٩٤) اللسان: ٣٠٠/٨.
(٩٥) ينظر: المصباح: ٥٧٤/٢.
(٩٦) المفردات: ٤٧١.

وجائز أن يكون مصر بغير ألف على أنه يريد مصرا بعينها، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩) ومنع من الصرف لأنه للمدينة فهو مذكر سمي به مؤنث، أي أن كلمة مصر اسم لأي مصر من الأمصار وأطلقت على مدينة بعينها(٩٧).

وذهب الخليل إلى أن المراد مصر من الأمصار ولذلك نون، ولو أراد مصر الكورة بعينها ما نون(٩٨). وجاء الاسم مصروفا مكتوبا بالألف في المصاحف العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف(٩٩).

ومن العلماء من يرى أن المراد بمصر، أي مصر من الأمصار، وممن ذهب إلى ذلك أبو عبيدة، إذ يقول: من الأمصار، لأنهم كانوا في تيه، قالوا: اثني عشر فرسخا في ثمانية فراسخ يتيهون متحيرين، لا يجاوزون ذلك إلا أن الله ظلل عليهم بالغمام، وأتاهم رزقهم هذا المن والسلوى، وفجر لهم الماء من هذه الحجارة، وكان مع كل سبط حجر غير عظيم يحملونه على حمار، فإذا نزلوا وضعوا الحجر فبجس الله لهم منه الماء. وبعض حدود التيه بلاد أرض بيت المقدس إلى قنسرين(١٠٠).

ورأى قسم آخر من العلماء أنه يعني فيهما جميعا مصر بعينها التي خرجتم منها، لأن ما كان من اسم مؤنث على هذا النحو هند وجمل فمن العرب من يصرفه ومنهم من لا يصرفه. قال الكسائي: يجوز أن تصرف مصر وهي معرفة لخفتها(١٠١).

والذي يبدو أن الراجح من هذه الأقوال هو أن المراد به مصر البلد الذي كان فيه فرعون، ودخول التنوين فيه كدخوله في نوح ولوط لسكون وسطه.

وفضلا عن ذلك فقد روي عن ابن مسعود وأبي بن كعب ترك التنوين، ففي مصحف عبد الله وقرأ به الأعمش: ﴿اهبطوا مصر﴾ بغير تنوين كقوله تعالى: ﴿ادخلوا مصر﴾ (يوسف: ٩٩)، وقيل: هو مصرا ئيم معرب(١٠٢).

وسبب ترجيح هذا الرأي لأنه أكثر دلالة وإيحاء على المراد من التعبير القرآني، فخاطبهم بما هم أهل له عودوا إلى مصر التي أخرجتم منها، عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة، إلى حياتكم الخانعة الذليلة. حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها، ويكون هذا من موسى عليه السلام تأنيبا لهم وتوبيخا.

---

(٩٧) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٣٠/١.
(٩٨) العين: ٩١٣، وينظر: المفردات ٤٧١.
(٩٩) تفسير القرآن العظيم: ١٢٦/١.
(١٠٠) مجاز القرآن: ٢٩، وتنوير المقباس: ٩.
(١٠١) ينظر: معاني القرآن، للأخفش: ٨٠.
(١٠٢) ينظر: الكشاف: ٧٩.

والذي يقوي هذا الرأي ويعضده، ما أعقبه في السياق من قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١) فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن من الناحية التاريخية في هذه المرحلة من تأريخهم، وإنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها. وإنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء، فناسب أن يكون قول موسى لهم: ﴿اهبطوا مصرا﴾، هو تذكير لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان[١٠٣].

وفضلا عن ذلك فإن ما يكتنف الكلمة يمكن أن يبين المراد، وهذا ما يعرف في علم الدلالة بقرينة المصاحبة (COLLOCATION)؛ إذ يمكن أن تعرف دلالة الكلمة عن طريق ما يكتنفها[١٠٤]، فقرينة السياق هي التي توضح المراد من التعبير القرآني، فلو كان المراد في النص مصرا من الأمصار لكان التعبير بالفعل انزلوا، فلما جاء التعبيو بكلمة اهبطوا تعين أن المراد من مصر هي البلد الذي ألفوه لأنه محل إقامتهم، لأن كلام العرب لا يقال فيه هبط الأرض إلا إذا استقر فيها، ويقال: نزل وإن لم يستقر[١٠٥]. فاتضح أن المراد بها مصر خاصة، لأنها محل إقامتهم وموطنهم الأول.

المبحث الثامن: ويل

الويل: حلول الشر والويلة الفضيحة والبلية، ويجمع على الويلات، قال الشاعر:

وَمُنْتَقِصٍ بِظَهْرِ الغَيْبِ مِنِّي لَهُ الوَيْلاَتُ مَاذَا يَسْتَثِيرُ

ويقال: الويل: باب من أبواب جهنم نعوذ بالله منها[١٠٦]. وكذلك يقال: ويلٌ لزيد وويلاً لزيد، فالرفع على الابتداء والنصب على إضمار الفعل، هذا إذا لم تضفه، فأما إذا أضفته فليس إلا النصب. لأنك لو رفعته لم يكن له خبر. والويل وادٍ في جهنم لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حره [١٠٧]. وقال الراغب: من قال ويل وادٍ في جهنم، فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا، وإنما أراد من قال الله تعالى ذلك فيه، فقد استحق مقراً من النار وثبت ذلك له: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ }(البقرة: ٧٩)[١٠٨].

(١٠٣) ينظر: في ظلال القرآن: ١/٧٤-٧٥.
(١٠٤) ينظر: علم الدلالة:٨٧.
(١٠٥) الفروق اللغوية: ٣١٦.
(١٠٦) العين: ١٠٧١.
(١٠٧) الصحاح: ١١٦٥.
(١٠٨) المفردات: ٥٥٠.

وجاءت المادة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه، ومنها قوله تعالى :(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)[المطففين:١-٣].

ولقد ا فتتح القرآن الكريم هذه السورة بالويل ، وهو الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم للمطففين، قال الزجاج : (ويل) كلمة تقال لكل من هو في عذاب وهلكة (١٠٩). وللحالة الإعرابية تأثير في الدلالة أحياناً ، وكلمة (ويل) تحمل وجهين الرفع أو النصب ، قال النحاس : "رفعت ويل في الابتد اء، ويجوز النصب في غير القرآن ؛ لأن ويلاً بمعنى المصدر (١١٠). وهذا ما أوضحه ابن خالويه بقوله: ويجوز في النحو ويلاً لكل همزة على الدعاء أي ألزمه الله ويلاً، قال جرير :

كَسَا الُّلؤْمُ تَيْماً خُضْرَةً فِي جُلُودِهَا فَوَيْلاً لِتَيْمٍ مِنْ سَرَابِيلِهَا الخُضْرِ (١١١)

بالنصب الرواية الصحيحة . وأجاز الكوفيون : ويلُ وويلٌ وويلَ وويلاً على حسم الإضافة وعلى إرادتها(١١٢).

ولكن التعبير القرآني آثر الرفع لأنه أبلغ في الدلالة على شدة العذاب وديمومته ، وهذا ما أوضحه االدكتور فاضل السامرائي بقوله : "فانظر كيف قال : (ويلٌ) بالرفع ول م يقل (ويلاً) بالنصب، وذلك لأنه بالرفع جملة اسمية ، وبالنصب جملة فعلية ، فأخبر بأن لهم عذاباً دائماً لا ينقطع أو دعا عليهم به، ولو قال (ويلاً) بالنصب لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم"(١١٣).

وهكذا يتوخى القرآن الكريم الدقة في اختيار الألفاظ، التي تكون أكثر قوة في تصوير الحدث وأشد في إبراز العقوبة، لكي يرتد ع العصاة ويكفوا عن ارتكاب المعاصي والآثام، فأتى بالويل مرفوعاً من أجل ذلك.

الخاتمة

تصدى هذا البحث لظاهرة الإعراب في اللغة العربية؛ إذ وجد أن الإعراب فيها عريق كعراقة هذه اللغة. وتشاركها فيه عدة لغات، بيد أنهانحسر فيها، ولم يبق منه إلا النزر اليسير.

وللإعراب علامات تدل عليه يطلق عليها الحركات التي هي الأصل في ذلك، وهي الفتحة والضمة والكسرة، ويضاف إليها الحروف التي تقابل هذه الحركات وهي الألف والواو والياء، وهذا ما يتعارف عليه في علم الأصوات الحديث بالصوائت.

---

(١٠٩) معاني القرآن وإعرابه: ٢٩٧/٥.
(١١٠) إعراب القرآن: ٦٤٨/٣.
(١١١) الديوان: ١٤٨. ورواية البيت في الديوان هي:
كَسَا الُّلؤْمُ تَيْماً خُضْرَةً فِي وُجُوهِهَا فَيَا خِزْيَ تَيْمٍ مِنْ سَرَابِيلِهَا الخُضْرِ
(١١٢) إعراب ثلاثين سورة: ١٩٢ ـ ١٩٣.
(١١٣) التعبير القرآني: ٣٤.

وما هذه الحروف إلا امتداد صوتي للحركات، فالألف تساوي ضعف صوت الفتحة، والواو تساوي ضعف صوت الضمة، والياء تساوي ضعف صوت الكسرة. ولذلك أطلق ابن جني على الحروف تسمية تشير إلى ذلك، حين سمّاها حركات ممطولة. وبتعبير آخر فإن كل حركة تساوي نصف أصوات الحروف المماثلة لها. والتي تسمى في علم التجويد بحروف المد، في حين تسمى عند علماء النحو بحروف العلة وهي (الألف والواو والياء).

وما تمخض عنه البحث أن لهذه الحركات دلالة على المعاني، وبها يتم التفريق بين المعاني المختلفة من فاعل ومفعول، ووصف وموصوف وما إلى ذلك من الوظائف التي تؤديها الكلمات في ثنايا الجمل المختلفة.

وتبين من التمهيد أن الإعراب مأخوذ من مادة عرب التي لها ثلاثة أصول، أحدها مدار البحث الذي يحمل دلالة الإبانة والإفصاح، فالذي يعرب بحجته هو من أبان وأفصح بها، ومن هذا المعنى جاءت تسمية الأمة العربية بهذا الاسم. لأن لسانها من أعرب الألسنة، وبيانها أجود البيان، ويشهد بذلك ما نطق به القرآن الكريم، إذ وصف اللغة التي نزل بها كلام الله العزيز بقوله عز وجل: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ }) الشعراء:١٩٥﴾.

والإعراب هو الحركات المبينة عن معاني اللغة، وليس كل حركة إعراباً، كما أنه ليس كل الكلام معرباً. وانقسم العلماء قديماً وحديثاً إلى فريقين: فريق رفض أن يكون للحركات الإعرابية دلالة على المعاني وهم القلة. وفريق آخر وهم جمهرة اللغويين، فقد ذهبوا إلى دلالة حركات الإعراب على المعاني. فالشواهد اللغوية والأخبار التي وردت في تراث هذه الأمة، تشير إلى أن العرب كانت تدرك أن الاختلاف في حركات الإعراب يؤدي إلى اختلاف المعاني.

وتناول المبحث الثاني كلمة (باعد) التي كثرت فيها القراءات القرآنية، بيد أنها تنتظم في صيغتين: الأولى: الصيغة الفعلية وهي صيغة فعل الأمر (باعد) و (بعِّد)، وهذا الأمر خرج على سبيل الدعاء، فقد بطروا ما هم عليه من نعمة وفضل، فطلبوا أن يبعد الله ما بين أسفارهم، فاستجيبت دعوتهم على سبيل العقوبة والردع وسلب النعمة. كما هي الحال عند بني إسرائيل، عندما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وأما بقية القراءات فجاءت فعلية أيضا، ولكن بصيغة الفعل الماضي. فحين استجيبت دعوتهم وحصل ما كانوا يدعون به، ووقع الحق، ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر الأشر، فشردوا وفرقوا في أنحاء الجزيرة، فأصبحوا أحاديث ترويها الرواة، وقصة تتقاذفها الألسنة.

ولم يأت اختيار اللغة العربية لتكون وعاءً لكتاب الله الكريم، إلا لما تتمتع به هذه اللغة من خصائص ومميزات، انفردت بها من بين سائر اللغات، ومنها تعبيرها عن اللفظ الواحد بعدة معانٍ، وتسميتها للشيء الواحد بمئات الأسماء، وبلغ من سعتها ومرونتها أن الكلمة الواحدة يصدق عليها الحركات الإعرابية الثلاث، كما هي الحال م ع كلمة (الحمد)، الواقعة في أم الكتاب؛ إذ قرئت بالرفع

وبالنصب وبالكسر، لكي تتنوع الدلالة بتنوع القراءة. وكانت قراءة الرفع هي المختارة من بين القراءات، لما لها من دلالة ثبوت الحمد ودوامه للخالق جل في علاه.

وتناول المبحث الرابع حمالة الحطب، وهي كنية أم جميل زوجة أبي لهب، وتقرأ بنصب حمالة وفيها وجهان إما أن تعرب حالا أو أن يكون نصبها على الذم جريا على عادة العرب في ذلك. والتقدير: أعني حمالة الحطب، أو كأنه قال أشتم أو أذم. والعرب تنصب على الذم كما تنصب على المدح.

وأما قراءة الرفع ففيها قولان أيضا: أحدهما أنه نعت لامرأته، والآخر أنه خبر الابتداء. وجاء نعتها بذلك لأنها كانت تحمل الشوك والسعدان فتضعه في طريق رسول الله ﷺ، أو أن التعبير القرآني أراد بذلك أسلوبا مجازياً؛ إذ يقال: للمشاء بالنمائم الذي يفسد بين الناس، يحمل الحطب. وتتجلى في ذلك تغير الدلالة تبعاً لتغير الحركة الإعرابية المترتبة على أي نوع من أنواع القراءات القرآنية.

ولم يأت اختيار اللغة العربية لتكون وعاءً لكتاب الله الكريم، إلا لما تتمتع به هذه اللغة من خصائص ومميزات، انفردت بها من بين سائر اللغات، ومنها تعبيرها عن اللفظ الواحد بعدة معانٍ، وتسميتها للشيء الواحد بمئات الأسماء، وبلغ من سعتها ومرونتها أن الكلمة الواحدة يصدق عليها الحركات الإعرابية الثلاث، كما هي الحال مع كلمة (الحمد)، الواقعة في أم الكتاب؛ إذ قرئت بالرفع وبالنصب وبالكسر، لكي تتنوع الدلالة بتنوع القراءة. وكانت قراءة الرفع هي المختارة من بين القراءات، لما لها من دلالة ثبوت الحمد ودوامه للخالق جل في علاه.

وجاءت كلمة راعنا في البحث على صيغتين: الأولى فعلية على صيغة فعل الأمر من المراعاة، وكان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ، إذا ألقى إليهم شيئا من العلم، راعنا يا رسول الله أي راقبنا وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه، وهذه الكلمة في السريانية أو العبرانية هي كلمة سب وشتم، فوجد اليهود فيها ضالتهم لإيذاء رسول الله ﷺ، فنهى الله تعالى المؤمنين عنها.

والصيغة الثانية اسمية (راعنا) منون منصوب على أنه مصدر، مأخوذ من الرعونة بمعنى الحمق، وبذلك يتبين ما لتغير الحركة من أثر في تغير الدلالة من الصيغة الفعلية التي بمعنى المراعاة، إلى الصيغة الاسمية بمعنى السفاهة والحمق. فأي سبيل أشد إيضاحا من القراءات القرآنية في هذا المجال التي تكشف عن البعد الدلالي للحركات الإعرابية في المفردات القرآنية.وأما بقية القراءات فجاءت فعلية أيضا، ولكن بصيغة الفعل الماضي. فحين استجيبت دعوتهم وحصل ما كانوا يدعون به، ووقع الحق، ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر الأشر، فشردوا وفرقوا في أنحاء الجزيرة، فأصبحوا أحاديث ترويها الرواة، وقصة تتقاذفها الألسنة.

والاسم المجيد من أسماء الله الحسنى، فإنه يحمل دلالة غاية العظمة في صفاته، وقد تحددت دلالته بنوع القراءة؛ فقراءة الرفع جعلته وصفاً لله تعالى،أما الكسر فصيرته وصفاً لعرش الرحمن.

وكلمة (مصر) التي وردت في القرآن الكريم منونة حيناً أي مصروفة، وغير منونة أي غير مصروفة حينا آخر. وكان اختلاف آراء العلماء فيها جليا؛ إذ ذهب بعضهم إلى أن المراد بها مصرا من الأمصار حين نونت، وذهب البعض الآخر إلى أن المراد بها هو مصر الكنانة البلد العربي المعروف الآن بجمهورية مصر العربية، واستدلوا بكون اللغة العربية تجيز صرف الممنوع من الصرف، إذا كان ثلاثيا ساكن الوسط، كما هي الحال في الأسماء المماثلة الأخرى التي جاءت مصروفة في محكم آي التنزيل الحكيم مثل نوح ولوط وما إليها.

وهذا ما ترجح من البحث، لأن الله عز وجل أنعم على بني إسرائيل بالمن والسلوى وتفجير الأنهار من خلال ضرب العصا بالحجارة، بيد أنهم استمرؤوا حياة الذل والمسكنة، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فأمرهم الله تعالى أن يعودا إلى أرضهم الأولى التي تجرعوا فيها كأس الذل والهوان، فهو أجدر بهم لما جبلت عليه نفوسهم من صغار واحتقار.

ومما يعزز ذلك القرينة السياقية التي تحيط باللفظ وتكتنفه، فلو كان المراد في النص مصرا من الأمصار، لجاء التعبير بالفعل انزلوا، فلما جاء بكلمة اهبطوا تعين أن المراد من مصر هي البلد الذي ألفوه، فهو محل إقامتهم، ففي كلام العرب لا يقال فيه هبط الأرض إلا إذا استقر فيها، ويقال نزل وإن لم يستقر بها. فالسياق يحدد دلالة الألفاظ، ويزيل الغموض عن الكلمات ذات المعاني المتعددة، فهو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة، على الرغم من المعاني المتنوعة التي في وسع الكلمة أن تدل عليها.

وهذا الاستدلال بقرينة السياق، الذي يعرف في علم الدلالة بقرينة المصاحبة، وهي ما يحيط بالكلمة من ألفاظ، لم يشر إليه أحد من المفسرين أو اللغويين، بل هو مما توصل إليه البحث مما يعد سبقا جديدا ورأيا لم يقل به أحد من قبل، بحسب ما وقع تحت يدي من المصادر.

ومسك الختام كلمة(ويل)، التي تحتمل النصب على المصدرية أو الرفع، كما هي الحال في كلام العرب. ولكن التعبير القرآني آثر الرفع لأن الجمل الاسمية تحمل دلالة ثبوت العذاب وديمومته للطغاة والكفرة والمشركين. و يتجلى في ذلك تغير الدلالة تبعاً لتغير الحركة الإعرابية المترتبة على أي نوع من أنواع القراءات.

وإن هذا البحث قد توصل إلى أن تغير بناء الكلمة أو حركة آخرها الإعرابي يؤدي إلى تغيير دلالة الكلمات والمقاصد من الكلام. وهو ما ظهر جلياً من خلال هذه النماذج التي اختارها البحث من كتاب الله تعالى. ومن الله التوفيق الذي بفضله تتم الصالحات. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، المكتبة التوفيقية، القاهرة . مصر،(د . ت).

٢) إحياء النحو: د. إبراهيم مصطفى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣) أساس البلاغة: الزمخشري، دار صادر، بيروت – لبنان ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م.

٤) أسباب النزول: الواحدي، دار المنار القاهرة، ط١ ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٥) أسرار البلاغة: الجرجاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

٦) أسرار العربية: ابن الأنباري، مطبعة بريل ليدن، (د . ت).

٧) أسماء الله الحسنى: ابن قيم الجوزية، المنصورة، القاهرة، ط١٤٢٩،١هـ.٢٠٠٨م.

٨) إعراب ثلاثين سورة: ابن خالويه، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد (د–ت).

٩) إعراب القرآن: النحاس، دار المعرفة بيروت لبنان، ط١ ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

١٠) الإنصاف في مسائل الخلاف: ابن الأنباري، دار الجيل، ١٩٨٢م.

١١) الإيضاح في علل النحو: الزجاجي، دار النفائس، بيروت، ط٢ ١٣٩٣هـ–١٩٧٣م.

١٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي، القاهرة،١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

١٣) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، دار الكتب العلمية لبنان، ط٢ ٢٠٠٧م – ١٤٢٨هـ.

١٤) التطور النحوي للغة العربية: برجشتراسر، القاهرة، ١٩٨١م.

١٥) التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٧م.

١٦) التعريفات: الجرجاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

١٧) تفسير الجلالين: المحلي والسيوطي، دار الآفاق العربية، ط١ ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

١٨) تفسير غريب القرآن: السجستاني، مكتبة دار التراث، القاهرة (د–ت).

١٩) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، مكتبة الصفا، ط١ ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

٢٠) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: الرازي، المكتبة التوفيقية، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٢١) تفسير الكشاف: الزمخشري، دار المعرفة لبنان، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

٢٢) تقريب النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٢٣) تنوير المقباس في تفسير ابن عباس: الفيروز آبادي،إحياء التراث العربي لبنان، (د–ت).

٢٤) التوجيه اللغوي لقراءات القرآنية عند الفراء في معاني القرآن: الدكتور طه صالح أمين، دار المعرفة، بيروت . لبنان،ط١، ١٤٢٨هـ . ٢٠٠٧م.

٢٥) الحجة في القراءات السبع: ابن خالويه، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م . ١٤٢٨هـ.

٢٦) الخصائص: ابن جني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،١٩٩٠م.

٢٧) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: د.حسام النعيمي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م.

٢٨) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، دار الجيل للطباعة، ط١ ٢٠٠٤م – ١٤٢٤هـ.

٢٩) ديوان أمية بن أبي الصلت: بيروت، المكتبة الأهلية، (د.ت).

٣٠) ديوان جرير :اعتنى به: حمدُو طمّاس، دار المعرفة لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

٣١) سر صناعة الإعراب: ابن جني، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١ ١٩٥٤م.

٣٢) شعرالكميت بن زيد الأسدي: جمعه د. داود سلوم، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٩م.

٣٣) الصاحبي: ابن فارس، دار الكتب العلمية بيروت، ط٢ ٢٠٠٧م – ١٤٢٨.

٣٤) صحيح البخاري: الإمام البخاري، المكتبة التوفيقية بمصر، (د–ت).

٣٥) صحيح مسلم: الإمام مسلم، مكتبة الإيمان بالمنصورة، (د–ت).

٣٦) العربية: يوهان فك، ترجمة: الدكتور عبد الحليم النجار، القاهرة، ١٩٥١م.

٣٧) العقد الفريد: ابن عبد ربه، القاهرة، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م.

٣٨) علم الدلالة: بالمر، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة،١٩٨٥م.

٣٩) الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، المكتبة التوفيقية، ١٤١٩هـ.

٤٠) الفعل زمانه وأبنيته: د. إبراهيم مصطفى، لجنة الترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩ م.

٤١) فقه اللغات السامية: كارل بروكلمان، ترجمة:د. رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، ١٩٧٧م.

٤٢) فقه اللغة المقارن: د. إبراهيم السامرائي: دار العلم للملايين بيروت، ط٢ ١٩٧٨م.

٤٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

٤٤) في النحو العربي: الدكتور مهدي المخزومي، بيروت، ط١، ١٩٦٤م.

٤٥) كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية: الرازي، دار الكتاب العربي بمصر، ١٣٠٦هـ. ١٩٩٧م.

٤٦) كتاب السبعة في القراءات: ابن مجاهد، تحقيق:د.شوقي ضيف، دار المعارف، ١٩٧٢م.

٤٧) كتاب العين: الفراهيدي، دار إحياء التراث العربي لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

٤٨) كشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م . ١٤٢٧هـ.

٤٩) لسان العرب: ابن منظور، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٥٠) اللغة الأكدية (البابلية . الآشورية): د.عامر سليمان، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٤١٢هـ. ١٩٩١م.

٥١) مجاز القرآن: أبو عبيدة، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

٥٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د–ت).

٥٣) المصباح المنير: الفيومي، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٥٤) مغني اللبيب: ابن هشام، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.
٥٥) معاني القرآن: الأخفش، دار الكتب العلمية لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٤م.
٥٦) معاني القرآن: الفراء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عالم الكتب بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
٥٧) معاني القرآن وإعرابه: الزجاج، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
٥٨) معجم الصحاح: الجوهري، دار المعرفة لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٥٩) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، دار إحياء التراث العربي لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
٦٠) المسند: أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٥٦م.
٦١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٦٢) مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، دار الغد الجديد، ط١٤٢٨،١هـ ٢٠٠٧م.
٦٣) المنهج الوصفي في كتاب سيبويه: الدكتور نوزاد حسن أحمد، بنغازي، ط١، ١٩٩٦م.
٦٤) النشر في القراءات العشر :ابن الجزري، دار الكتب العلمية، ط٣،٢٠٠٦م .١٤٢٧هـ.
٦٥) نظرات في اللغة والنحو: طه الراوي، منشورات المكتبة الأهلية بيروت، ط١، ١٩٦٢م.